النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت):

مدرسة فراكفورت مدرسة فلسفية نقدية ذات نزعة نقدية، ارتبط إسمها بمجموعة من الأعلام مثل: "ماكس هوركهايمر"(1895-1973)، "إريك فروم"(1900-1980)، تيودور أدورنو"(1903-1969) "هربرت ماكوزة"(1898-1979)، إرنست بلوخ(1885-1977)،"والتر بنيامين"(1892-1940) و "يورغن هابرماس"(1929-....) الذي ينتمي إلى الجيل الثاني. وقد أخذ هؤلاء على عاتقهم متابعة المشروع النقدي الذي أرسى دعائمه الفيلسوف "إيمانويل كانط" في مؤلفاته الرئيسية: نقد العقل الخالص، نقد العقل العملي، ونقد ملكة الحكم. لقد كان لفلسفة كانط النقدية حضورا بارزا في فكر الفلاسفة المعاصرين، وبالتحديد على فلاسفة مدرسة فرانكفورت، رغم الفاصل الزمني الكبير بين كانط ومدرسة فرانكفورت و الذي يصل إلى حوالي القرنين، إلا أن فلسفة كانط النقدية كانت من الأسس التي قامت عليها مدرسة فرانكفورت النقدية خاصة في جيلها الأول، أي أن رواد الجيل الأول «هوركهايم» و«أدورنو» قد تأثرا في صياغة مشروعهما الفلسفي والاجتماعي بفلسفة كانط عامة أو على الأقل بروح النقد لديه. فالنظرية النقدية مدينة بالكثير إلى فلسفة كانط ، فالحضور المستمر لكانط في مؤلفات فلاسفة مدرسة فرانكفورت يؤكد تأثير كانط على التوجيه النقدي لهذه المدرسة ، فكانط إذن يُعد المرجعية الثابتة للفلسفة الحديثة، و هو ما جعل فلاسفة النظرية النقدية أنفسهم في حوار متواصل معه إلى أيامنا هذه. وكذلك تحيين فلسفة التاريخ لدى "هيجل" بإجراء تعاون وطيد بين الفلسفة و العلوم التجريبية. وقد ظهرت النظرية النقدية كرد فعل على الوضعية التجريبية التي كانت تدرس الظواهر الاجتماعية دراسة علمية موضوعية من خلال ربط المسببات بالأسباب، وذلك في إطار تصور آلي ميكانيكي. هذه الوضعية التي كانت تُعنى مع "أوجست كونت" بدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية موضوعية تجريبية، باستخدام الملاحظة والتكرار والتجربة، وربط الأسباب بمسبباتها، بغية فهم الظواهر العلمية فهما علميا دقيقا. وكانت الوضعية تهتم أيضا بوصف الظواهر دون تفسيرها، لأن التفسير يرتبط في منظور الوضعية بالـتأملات الفلسفية والميتافيزيقية. كما استبعدت الوضعية البعد الإنساني والتأملي والأخلاقي في عملية البحث. وقد وجهت مدرسة فرانكفورت إلى هذه النظرية الوضعية انتقادات قاسية. انتقدها أدورنو لعجزها عن اكتشاف المصلحة الذاتية التي قد تسهم في تحقيق تقدم موضوعي، بسبب القصور الكامن في أسسها المنهجية، وفشلها في إقامة صلة قوية بين المعرفة من ناحية والعمليات الاجتماعية الحقيقية من ناحية أخرى. لذلك، وانتقدها هابرماس بسبب طبيعتها المحافظة، وقصورها عن فهم العلاقة الخاصة بعلم الاجتماع والتاريخ، انطلاقا من أن علم الاجتماع الوضعي لا يأخذ في اعتباره دور التحولات التاريخية في تشكيل المجتمعات. وبصورة عامة وجه الرعيل الأول لمدرسة فرانكفورت انتقادات شديدة إلى النزعة العلمية المفرطة و أنساقها التي تحوّلت إلى إيديولوجيات تستند إلى يقين معرفي و معتقدات إيمانية. لقد هاجم مفكرو مدرسة فرانكفورت سعي الوضعية إلى تحقيق المعرفة العلمية، وتكميم الحقائق، بما يؤدي إلى ضياع المعنى الجوهري للظواهر الاجتماعية. ومن ثم فقد أدى تمثل الوضعية لنموذج العلم الطبيعي في علم الاجتماع إلى فصل المعرفة عن بعدها الأخلاقي، وهو ما يعني استبعاد الموقف الأخلاقي للباحث، عن طريق

الادعاء بأن علم الاجتماع هو علم متحرر من القيمة، وهو ما يعني أيضا أن هذا العلم يمكن أن يكون أداتيا بالنسبة للقوى الاجتماعية المتسلطة، أو هو وسيلة للتحكم والهيمنة كما حدث في الرأسمالية المتقدمة. فالوضعية العلمية تستبعد الذات، والتاريخ، والأخلاق، والمصلحة الاجتماعية، وهي في خدمة الليبرالية المستغلة، بل إنها تعتبر البشر كائنات مقيدة بحتميات علمية محددة، وأن لا دور ولا قدرة للإنسان على التغيير. وهذا يظهر جليا مع "دوركايم الذي يؤكد أن الفرد يجد نفسه في مواجهة المجتمع كقوة أسمى منه عليه أن ينحني أمامها، أو ما يؤكد عليه "ماكس فيبر" حين يرى أن الفرد في المجتمعات البيروقراطية، رأسمالية أم اشتراكية، ليس إلا ترسا في آلة كبيرة. وعلى ذلك تعمل النظرية النقدية على نقد الواقع الاجتماعي، وتقويض تصوراته الإيديولوجية الليبرالية، والبحث عن تجليات جميع مظاهر "الاغتراب" الذي يعانيه الإنسان أو الشعوب سواء في النصوص والخطابات أو في واقع الممارسة. والهدف من هذا النقد هو تحقيق تفاعل العقل والمصلحة من خلال ربط الممارسة بالنظرية. إن المعرفة العلمية التي تم تسخيرها لفهم الطبيعة و السيطرة عليها تم استخدامها أيضا للتحكم في الإنسان، أي أن النظام الذي تصوره الإنسان لمدّ سيطرته على الطبيعة تم نقله أيضا إلى المجتمع للتحكم في الأفراد والجماعات، من خلال مختلف التنظيمات القانونية و الإدارية و جميع أشكال الضبط و التقنين والعقلنة التي تتعلق بكل جوانب الحياة في العالم المعاصر. فالعقلانية التي تبلورت في الفكر الفلسفي المعاصر منذ عصر الأنوار مرتبطة أساسا بفكرة السيطرة على الطبيعة أولا ثم السيطرة على الإنسان بعد ذلك. كما أتت النظرية النقدية كرد فعل على النظريات النقدية للعقل المثالي كما عند كانط وهيجل، بالاعتماد على القراءة الماركسية الجدلية، والاستعانة بالمادية التاريخية. كما وقفت إزاء النظريات البورجوازية التي مارست صنوفا من السلطة الفكرية، ورفضت الفصل بين النظرية والممارسة، بعد أن كانت النظرية في المثالية الألمانية هي المفضلة. وباختصار، فإن النظرية النقدية قد انتقدت النزعة العلمية المغالية، وانتقدت أيضا العقلانية العلمية التقنية، وذلك باعتبارها شكلا من أشكال الهيمنة التي ميزت الرأسمالية الأكثر تطورا، أو بشكل أوسع انتقدت تلك المجتمعات الصناعية المتقدمة في القرن العشرين. وجاءت أيضا لنقد الإيديولوجيات السائدة، ونقد الفاشية المستبدة، ونقد النزعة المعادية للسامية إبان وصول النازية إلى الحكم.

وظهور مدرسة فرانكفورت مرتبط إلى حد كبير باندلاع الحرب العالمية الأولى وما تركته من أزمات اجتماعية واقتصادية ونفسية، وما سببته من موت وخراب ودمار، وما تبعها من تحولات سياسية كبرى، وقيام الثورة البلشفية عام 1917 وتأسيس أول دولة اشتراكية في أوروبا، وكذلك قيام جمهورية فايمار عام 1919 في ألمانيا وما تبعها من صراعات وانقسامات سياسية في صفوف اليسار الأوروبي. كذلك فإن هيمنة الفكر الرأسمالي الليبرالي على الفلسفة الغربية فترة طويلة استطاع أن يحول الإنسان بفعل الإيديولوجية التي تتحكم به إلى بضاعة أو سلعة أو شيء تُمرِر عليه غاياتها، "فليس ثمة فرق بين الإنسان و بين القدر الإقتصادي، فكل يساوي ما يكسبه ويكسب ما يساويه". وكرد فعل على استغلال البورجوازي المسيطر على رؤوس الأموال ظهرت الحركة الشيوعية والاتجاه الاشتراكي الذي جعل الدولة هي المتحكم بالاقتصاد والملكية الشخصية،

فغاب الفرد وقمعت حريته وسلبت ملكيته حتى عانى من اغتراب أخر وهو يعيش في دولة يقودها العمال. وقد أكدت مدرسة فرانكفورت في وقت مبكر، أن الوعد العظيم بالتقدم غير المحدود، وعد السيطرة على الطبيعة، والوفرة المادية، والسعادة القصوى للأغلبية العظمى، والحرية الشخصية غير المحدودة، هذا الحلم الذي كان محط الآمال ومنبع الإيمان للأجيال منذ بداية العصر الصناعي وعصر التنوير قد أخفق، ذلك في اللحظة التي بدأ الإنسان ينتبه فيها إلى أنه تحول إلى مجرد ترس في يد الآلة البيروقراطية، وأن النظام الاقتصادي والحكومات وأجهزتها الإعلامية هي التي تشكل مشاعره وأفكاره وأذواقه وتوجّهه الوجهة التي تريد، فالمجتمع الرأسمالي الصناعي كشف يوما بعد يوم عن اغتراب الإنسان وتشيئه.

لقد حاولت مدرسة فرانكفورت القيام بممارسة نقدية جذرية للحضارة الغربية قصد إعادة النظر في أسسها ونتائجها في ضوء التحولات الأساسية الكبرى التي أفرزتها الحداثة الغربية، كما أنها لعبت دورا هاما في رصد مختلف الأعراض المرضية التي عرفتها المجتمعات الغربية المعاصرة كالتشيؤ والاغتراب وضياع مكان الفرد وأزمة المعنى وغيرها. لذلك دان "هربرت ماركوزه" الفلسفة الوضعية والتحليلية المهيمنة على العالم، ودعا إلى ثورة فكرية في الغرب تنتقل به من التصور القمعي والتقني للعقل إلى التصور التحريري والإنساني، لأن العقلانية الغربية اختزلت الإنسان إلى مجرد بعد واحد وحذفت بعده الآخر، وهنا تكمن مأساة الغرب وأزمته الحضارية. وانتقد "هوركهايمر" و"أدرنو" المجتمع البرجوازي المعاصر، وأعلنا أن العقلانية تتسم بنزعة علمية إلى إفناء الذات، فالإنسان مُسيْطر عليه في المجتمع البرجوازي، وتلك هي آثار الحضارة الإنسانية والتقدم الاجتماعي. كما انتقدت مدرسة فرانكفورت التنوير. ففي كتاب (خسوف العقل) يذكر هوركهايمر، انه اذا كان المقصود بالتنوير والتقدم الفكري هو تحرير الانسان من الايمان الباطل بالقوى الشريرة وبالشياطين والمصير الاعمى، أي اذا كان المقصود هو تحرير الانسان من الخوف، فعندئذ تصبح إدانة ما يسمى بالعقل أكبر خدمة تؤدي للانسان. لهذا نراه يعتبر التنوير فكرا برجوازيا.

و في كتاب "جدل التنوير" تناول "هوركهايمر" و "أدورنو" عدة إشكاليات تتمحور في الأساس حول قضية العقل الأداتي والحداثة الغربية، كما اهتما بنقد هذه الحداثة عبر أهم الأسس والمرتكزات التي قامت عليها، كالعقل، والحريـة، والعدالة، واحترام كرامة الإنسان وحقوقه، وفكرة التقدم الإنساني، وهذا قصد التخلص من الظلم الذي ظل يعاني منه الإنسان، والتخلص من مختلف أشكال السيطرة التي عرفها في ظل المؤسسات الدينية والسياسية التي كانت سائدة في أوروبا في تلك الفترة. لاحظ ادورنو أن تطور العقل يحكمه قانون السيطرة وفق المعادلة التالية: الطبيعة/ الإنسان، الإنسان / الطبيعة. إن هذه السيطرة خلقت وعيا جديدا أطلق عليه ادورنو ‘‘الوعي التكنولوجي’’ الذي جعل من العقل مجرد آلة انحرفت عن مسارها الموضوعي وتوجهت إلى خدمة مصالحها الخاصة. وهنا يعلن ادورنو ثورته على العقل الغربي بلا هوادة، هذا العقل الذي خان مبادئه التنويرية، وأصبح عقلا شموليا واستئصاليا. إن المجتمع الصناعي المتقدم قد خلق

حاجات زائفة أدت إلى تنامي النزعة الاستهلاكية مما خلق شكلا من أشكال السيطرة الاجتماعية على الأفراد في المجتمع، فالاستهلاك المفرط يدفع الأفراد إلى العمل أكثر مما هو مطلوب لتغطية حاجاتهم المتجاوزة لما هو أساسي، مع تجاهل للآثار النفسية المدمرة والأضرار البيئية المترتبة على هذا الوضع. ولا يتوقف الأمر عند ذلك بل يزداد الوضع لاعقلانية عبر خلق منتجات جديدة تدعو إلى التخلص من المنتجات القديمة، الأمر الذي يدفع إلى العمل أكثر لشراء المزيد، وبذلك يفقد الفرد إنسانيته ويصبح أداة في آلة التصنيع والاستهلاك، وتعمل الإعلانات على المحافظة على النزعة الاستهلاكية من خلال إخبار المستهلكين أن السعادة قابلة للشراء. وهو ما أدى حسب ماركوزة إلى خلق كون أحادي البعد للفكر والسلوك، يضعف فيه الاستعداد إلى التفكير النقدي والمعارضة. لقد أكدت مدرسة فرانكفورت أن مشروع التنوير قد عجز عن تحقيق الأهداف والمبادئ التي وجد من أجلها، ولم يعد متماهيا مع فكرة التقدم كما روج لها المدافعون عنها، خاصة من أنصار الوضعية، بل على العكس من ذلك خلق تعاسة الإنسان وتراجعه على جميع المستويات خاصة ما تعلق بالأخلاق و الدين وجميع القيم الروحية. حيث سيطر العقل الأداتي كليا على العقل، وتم طرد العقل من الأخلاق و الحق، بل جُرّد العقل تماما من حق الرفض و تم احتواءه من طرف السلطة و توجيهه بما يكفل استمرارها. إذن "هذه البربرية التي سادت في هذا القرن حسب أدورنو و هوركهايمر تنذر بأسوأ العواقب للجنس البشري".

معلومٌ أنّ النزعة الوضعية كانت قد اعتبرت الطبيعةَ مادة استعمالية يتم توظيفُها في خدمة أهداف الإنسان العملية قصد تحقيق مصالحه ومنافعه المادية، ولهذا السبب"لم تعد الطبيعةُ ذلكم الديكور الجميل الذي يدخل البهجة في النفوس، بغض النظر عن فائدته، بل أصبحت علاقة الإنسان بالطبيعة علاقة نفعية، استخدامية، وسائلية وأداتية، حوّلت كل جمالات الطبيعة إلى أشياء قابلة للاستخدام والانتفاع". ضمن هذا السياق يصبح الإنسان نفسه مجرد جزء أو عنصر من الطبيعة، فهو يخضع للتقنين والتنظيم والتوجيه مثل الطبيعة، ولهذا يمكننا القول بأنه أصبح مستوعبا في كلية النظام الطبيعي والاجتماعي أيضا، باعتباره شيئا ثابتا، ولهذا يتم فرض المقولات الكمية على السلوك الإنساني وإخضاعه للقوانين الرياضية والقواعد القياسية حتى يتم التحكم فيه تحكما تاما وشاملا، وفي هذه الحالة يكون فاقدا لحريته التي طالما أكدّها المفكرون التنوريون باعتبارها مطلبا إنسانيا أساسيا. وهذا يتنافى بالتأكيد مع تلك القيم والمفاهيم الإنسانية التي جعلت منها العقلانية التنويرية في القرن الثامن عشر مرتكزات أساسية لبناء حضارة إنسانية خالية من القهر الظلم والسيطرة.لا شك أنّ إخضاع كل شيء (الطبيعة والإنسان) للتجريب والتكميم الرياضي كما دعت إلى ذلك الفلسفة الوضعية جعل هذه العقلانية عاجزة تماما عن إدراك العمليات الاجتماعية والإنسانية في سياقها الشامل الذي يتخطى حدوده المباشرة، بل أصبحت عاجزة تماما عن إدراك غائيات نهائية أو كليات متجاوزة للمعطيات الجزئية الحسية والمعطيات المادية الآنية، وبالتالي لا يمكن تحقيق أي تجاوز معرفي أو أخلاقي، لهذا السبب نفسه تصبح العقلانية الأداتية غير قادرة على تجاوز الحاضر للوصول إلى الماضي وإلى استشراف المستقبل. والمفارقة هنا أنّ العقل هو الذي مكّن الإنسان من أن تكون لديه إمكانية التحرّر والإنعتاق من مختلف أشكال القهر والهيمنة

التي عرفها في الماضي،فالعقل يفترض الحرية لأنّ العقل يعني القدرة على التوجّه بالذات نحو تقرير حياتنا الخاصة.والحرية، من جهة أخرى، تفترض العقل، لأننا لا نستطيع أن نقرر ما الذي يمكن أن تكون عليه الحياة الأفضل والأكثر انعتاقا إلا من خلال إعمال العقل(16). لذلك يتوجب، حسب هوركهايمر وأدورنو، طرح السؤال الأساسي التالي: كيف للعقل، الذي ينطوي على قوة تحررية فعّالة، والذي صاغ بموجبه فلاسفة التنوير المفاهيم والقيم الإنسانية الكبرى-أي الحرية، العدالة، التقدم الإنساني- كيف له أن ينقلب إلى نقيضه، أي إلى قوة ارتكاسية، واتجه نحو ممارسة القمع والهيمنة، وبذلك تحوّل إلى أداة هائلة في السيطرة على الطبيعة وعلى الإنسان نفسه ؟ لهذا السبب انشغلت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت كثيرا بمصير الإنسان الغربي المعاصر الذي تقلصت مساحات حريته كما قلنا، وذلك على الرغم أنه يعيش اليوم في مجتمعات جعلت الحرية والسعادة والتقدم شعارا لها، غير أنّ في حقيقة الأمر هناك قهر يمارس عليه بصور أشكال مختلفة داخل المؤسسات السياسية والإدارية والاقتصادية، وفي مقدمتها مؤسسة الدولة التي أصبحت في زماننا هذا تستند في نشاطاتها ووظائفها إلى المعرفة العلمية والتقنية وإلى الخبراء المختصين في مختلف المجالات، ولهذا استطاعت الدولة أن" تتحول إلى نظام شامل للقمع والقوة والسيطرة، فعرضت الإنسان إلى لأشكال مختلفة من القهر الظاهر والباطن، والقمع الواعي وغير الواعي الذي ينطلق من أجهزة الإنتاج الضخمة، والمؤسسات الإدارية والبيروقراطية والاستهلاكية والإعلامية التي تشبه آلات هائلة يحاول الناس أن يكيفوا أنفسهم مع ضغوطها ومطالبها"(17)، وقد بلغت في ذلك حدودها القصوى حسب مفكري مدرسة فرانكفورت في النظم الشمولية أو التوتاليتارية التي بلغت أوجّها بعد صعود النازية وما حل بأوربا في تلك الفترة التاريخية المأساوية من تاريخ الحضارة الغربية وما عرفته من وحشية وبربرية، فتحول التقدم إلى انتكاسة وتراجع خطير أصبح يهدد مصير الإنسانية نفسها لأن هذه الوحشية أو البربرية التي تجلت في مأساة الحرب العالمية الثانية، وما خلفته هذه الحرب من ضحايا لم تكن تُمارس بوسائل تقليدية وإنما استندت بالأحرى على العقلانية العلمية والتكنولوجية المتاحة في تلك الفترة التاريخية، ويظهر ذلك في طبيعة الأسلحة والعتاد والوسائل الحربية التي استخدمت من طرف الدول المتحاربة، وخاصة ألمانيا والولايات المتحدة و الاتحاد السوفيتي، أي تلك الدول المتقدمة تكنولوجيا. تكمن أزمة العقلانية إذاً –حسب هوركهايمر وأدورنو- في تحولها إلى أداة سيطرة ونزوعها الشمولي نحو الهيمنة الكلية والتي أفضت في نهاية المطاف إلى البربرية التي دمرت الحضارة الإنسانية، وتعبّر الحرب العالمية الأولى ثم الثانية، الكارثة الإنسانية، نزوع هذه العقلانية نحو تدمير ذاتها وإلى أفولها، وهذا ما عبّر عنه هوسرل في كتاب الأزمة بالسقوط "في عداء الروح وفي البربرية." لكن كيف يمكن تجاوز هذه الأزمة – حسب هوركهايمر وأدورنو- في الوقت الذي يتحدثان فيه عن تحوّل العقلانية نفسها إلى قوة ارتكاسية ونزعة للسيطرة ؟ هاهنا يمكن أن نلاحظ أنّ هوركهايمر وأدورنو لا يتخليان عن العقلانية وإنما يدعوان إلى شكلٍ جديدٍ من العقلانية (النقدية) التي لا تختزل في الطابع الأداتي. والحقُ إنّ هذه العقلانية تقوم في الأساس على جعل النقد الأسلوب الرئيسي في النظر إلى الأشياء والمواقف والأفكار، ولهذا فهي لا تُختزل في الجانب المعرفي المجرد وإنما تتوجه أيضا إلى الواقع الاجتماعي الملموس قصد الكشف عن فظاعات العقلانية

الأداتية في هذا الواقع، وبهذا فإنّ هذا النقد الاجتماعي قريب من المعنى الذي مارسه كارل ماركس بغرض تغيير الواقع الاجتـماعي الذي يصير معه أكثر حرية وأرقى إنسانية، أي النقد الذي يرتبط بالممارسة، لأنه لا معنى لنقد منفصل عن الواقع الملموس. يتعين التنبيه في هذا السياق إلى أنّ "نقد العقل الأنواري وكشف المظاهر البربرية للعقلانية وإدانة سيطرة الدولة الحديثة في أشكالها القهرية، فعل ضروري لإعادة تنشيط السلب في الفكر وتجديد القوة النقدية للفلسفة"(18). وضمن هذا المنظور، يمكن أن نشير إلى أنّ العقلانية النقدية- بحسب هوركهايمر وأدورنو- قادرة على تجاوز الوضع القائم على السيطرة، لذا فهي لا تخضع لما هو قائم وتقبله وإنما يمكن أن تقوم بجهد نقـدي تجاه الأفكار والمؤسسات السائدة والمهيمنة، وبالتالي تتحقق عملية التحرر الإنساني ويتم تجاوز الاغتراب والتشيؤLa réification ، وباختصار شديد يمكن تحقيق خلاص الإنسان من خلال العقلانية النقدية، لأنّ هذه العقلانية تعبّر بالمعنى العريض عن "فكرة التقدم، وهدفها تحرير الإنسان من الخوف وجعله سيدا "(19.(ها هنا يتبيّن لنا الفرقُ واضحًا بين تصوّر هوركهايمر وأدورنو لطبيعة الفعل الفلسفي المؤهل لتجاوز أزمة العقلانية وتصوّر هوسرل. إنّ هذا الأخير يعتقد أنّ الفلسفة الفينومنولوجية يمكن أن تكون حلا للأزمة التي تتخبط فيها الإنسانية اليوم، لذلك كان من الواجب أن تتجه الفلسفة نحو أفق تصبح فيه علما كليا وبنائها على أسس جديدة تتجاوز فيه بذلك الخطاب الوضعي الذي اختزل المعرفة إلى علم الوقائع ونسي عالمَ الحياة اليومية باعتباره أفقا لكل ممارستنا وسلوكياتنا. إنّ تدشين هذه الفلسفة الجديدة هو "تدشين للبشرية الحديثة، وبالضبط كبشرية تريد، بالمقارنة مع البشرية كما كانت في ذلك، مع البشرية الوسيطة والقديمة، أن تتجدد جذريا من خلال فلسفتها الجديدة، ومن خلالها فقط "(20).